Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)
مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية
MESR
منار الشرق للدراسات والأبحاث
Manar Elsharq for Studies & Research

رؤية نقدية لنصوص شعرية عند السياب

أ.م.د. حمزه عبيس عبد الساده[1]، م. د عدنان موسى خطار[2]

جامعة المستقبل – كلية الآداب والعلوم الانسانية – قسم الاعلام[1]

جامعة المستقبل– كلية الآداب والعلوم الإنسانية[2]

adnan.musa.khdaar@uomus.edu.iq

استلام البحث:18-09-2025 مراجعة البحث :14-10-2025 قبول البحث:10-11-2025

الملخص

يُعدّ بدر شاكر السياب واحدًا من أبرز روّاد التجديد والحداثة في الشعر العربي الحديث، إذ استطاع أن يمنح المكان في شعره أبعادًا فنية ودلالية عميقة جعلته مرآة لمشاعره وتجربته الإنسانية. وقد تنوّعت صور المكان في شعره بين الأمكنة الأليفة التي تبعث الطمأنينة والحنين، والأمكنة المعادية التي تكشف عن القلق والاغتراب والمعاناة. وتميّز السياب بقدرته الفائقة على توظيف المكان وإيحاءاته في التعبير عن رؤيته الجمالية والفكرية والسياسية، فغدت الأمكنة في شعره ليست مجرد إطار للأحداث أو زخرفاً لغوياً، بل عنصرًا بنائيًا محوريًا يسهم في صياغة تجربته الشعرية. إن شعر السياب – بمجموع دواوينه المكتوبة في إطار الشعر الحر – لم يكن ثورة على الشكل العمودي فحسب، بل جاء أيضًا انعكاسًا لسيرته الحافلة بالفقر والحرمان والمرض، وهي سيرة ألقت بظلالها الواضحة على صوره المكانية التي مثلت في كثير من الأحيان وسيلةً للتعبير عن الألم والأمل معًا.

الكلمات المفتاحية: رؤية الأمكنة، السياب، نقدية، شعر

Abstract:

Badr Shakir al-Sayyab is regarded as one of the foremost pioneers of renewal and modernity in modern Arabic poetry. In his work, place acquires profound artistic and semantic dimensions, serving as a mirror of his emotions and personal experience. The imagery of place in his poetry oscillates between the familiar spaces that evoke intimacy and nostalgia, and the hostile ones that reflect alienation, anxiety, and suffering. Al-Sayyab demonstrated exceptional ability in employing the symbolic resonances of place to articulate his aesthetic, intellectual, and political vision, thus making place not a decorative element or a marginal frame but a central component in the structure of his poetic experience. His corpus of free verse poetry, which marked a revolution against classical forms, also bears the imprint of a life marked by poverty, deprivation, and illness—biographical realities that deeply shaped his spatial imagery and rendered it both a channel of pain and a vehicle of hope.

Keywords: Vision of places, Al-Sayyab, criticism, poetry.

المقدمة

ولد الشاعر بدر شاكر السياب في قرية جيكور من قرى أبي الخصيب في البصرة عام 1926م، أكمل دراسته في محافظة البصرة، مارس مهنة التدريس بعد تخرجه في دار المعلمين العالية في بغداد، عاش حياة يسودها الفقر والمرض والحرمان، مات وهو في مقتبل العمر عام 1964م.

يعد السياب من أبرز شعراء الشعر الحر الأوائل في العراق والوطن العربي، وهو رائد من رواد التجديد والحداثة في الشعر العربي.

للسياب عطاء شعري وفير فله مجموعة دواوين شعرية منها: أزهار ذابلة، وأساطير، والمعبد الغريق، وحفار القبور، واقبال، وشناشيل ابنة الحلبي... الخ.

إن تجديد الشاعر وحداثته الشعرية هي التي جعلتني اختار بحثي هذا، قسمت البحث على الشكل الآتي: ضم المبحث الأول: الأمكنة الأليفة في شعره، أما المبحث الثاني فقد ضم الأمكنة غير الأليفة أي الغريبة والمستوحشة.

اتبعت المنهج الاستقرائي في بحثي، اذ اخترتُ النصوص في ضوء ما تتطلبه حاجة البحث، ثم الخاتمة، تليها المصادر والمراجع.

المبحث الأول

الأمكنة

الأمكنة جمع مكان، والمكان له علاقة وثيقة بالناس بصورة عامة وبالشاعر بشكل خاص، وله حيز ووجود.

هو فضاء تتحدد معانيه ووظائفه بالناس وبنفسية الشاعر، بالتالي فكل عداء عملي (مادي) أو لفظي (معنوي) موجه نحو أية حيز/جزء مكاني فيه له تبعات ونتائج شعبية احتجاجية نحو المعتدي، قد تتحول من ثم الى ثورة غاضبة أو أي من صور الغضب المماثلة المعبرة عن محبة الشعب وعمق صلته بالوطن، وجميعها معانٍ متزامنة تصاحب هذه الظواهر في نشأتها [1].

والمكان حاجة فكرية لمعرفة مصداقية الفنان أو الأديب وهو يسهم في بنية النص الفنية لأنه يتحدد ويعبّر عن الممارسة الواعية للمبدع[2].

فالمكان له اهمية كبرى في شعر السياب فهو يلتقط صوره الشعرية من أمكنته فله أثر واضح في قصائده الشعرية، فالسياب يستخدم الألفاظ المكانية التي أحبها وألفها في شعره وهناك أمكنة في قصائده الشعرية لا تألفها نفسه.

فالأمكنة الأليفة تأنسها النفس وتدعو النفس الى الطمأنينة والارتياح والرضا والألفة، أما الأمكنة المعادية فهي تثير الاحساس بالضيق والعداء للبشر، والمكان المعادي يكتسب سمات العداء عبر التجارب بشكل مطلق وله علاقة بحالة الانسان النفسية[3].

فالأمكنة الأليفة هي البيوت القديمة بيوت الطفولة أمكنة الألفة ومراكز تكييف الخيال هي التي عشنا فيها وترعرعنا وشعرنا فيها بالدفء والحماية والحنان[4].

أولاً: الأمكنة الأليفة عند السياب

1. مكان الطفولة/جيكور:

نافورة من ظلال،من أزاهير،
ومن عصافير،
. جيكور جيكور، يا حقلاً من النورِ
يا جدولاً منفراشات نطاردها
في الليل،في عالم الاحلام، والقمر
ينشرن أجنحةأندى من المطر[5]

تتحد هذه الدلالة بكون الشاعر لا يرى من وطنه غير طفولته وهي أعمق ما في الماضي عذوبة، إن جيكور التي تعني أعمق صور الطفولة دلالة على (وطن الذات) وتنسج ملامحها الذكريات المقترنة بعوالم الطفولة بوصفها انطلاقاً للفكر وصفاء في الرؤية ومن ذلك ما يتجسد في قصيدة "أفياء جيكور":

نافورة من ظلال،من أزاهير،
ومن عصافير،....

إن هذه القصيدة تلمح الى طفولة بدر شاكر السياب ومع ان الطفولة ليست نعيماً كله فإن آلامها وحسراتها تسقط وتتبري ذكرياتها وقد توهجت في وهج الحنين بما يدع الأحداث والأشياء تتخذ ما هو أقصى من مداها الطبيعي.

وقد كانت منازل الطفولة تتراءى في ذكريات الشاعر بأشكالها وظلالها وسكانه مغشية بالألم والحسرة.

وقد استهل الشاعر هذه القصيدة بشيء من التفاؤل في مطلعها؛ حيث أن مفردات: نافورة/ظلال/أزاهير/عصافير... جميعها مفردات تشيء تفاؤلا وأملاً لديه نحو مكان طفولته؛ وقد أفصح بذلك صراحة نحوه (أي نحو جيكور) بأسلوب تصريحي واختصاصي في آن معاً، حيث ناداه مختصاً إياه دون غيره من الأماكن كما لو أنه حقلا يسمعه، والدلالة على الأمل تجلت في كونه يعتبره حقلاً زراعيا والحقل الزراعي ينبت عطاء وفيرا خيّراً، حيث لم يكتفي بمناداته له بحقل بل جاء تأكيده على الأمل والتفاؤل نحو مكان طفولته في جملة "من نور" فعوضا عن كونه يراه حقلاً فهو أيضا مصدر نور وتنوير بالنسبة له.

"جيكور، يا حقلاً من نور).

فالسياب حين يزور جيكور يرى نورها يتألق وفراشاتها تحلق فرحة فيقول:

يا جدولاً من فراشات نطاردها
في الليل، في عالم الاحلام، والقمر
ينشرن أجنحة أندى من المطر

إلا إن جبينه ملتهب والهجير يتلظى في أحشائه فتحضر عليه فكرة الزمن ومعاناة الموت.

إن خيال الشاعر يرتقي بجيكور هنا الى عمق كوني يقربها من المطلق، فلا عجب أن تمنحه هي خلوده فيقول:

لولاك يا جنتي الخضراء يا داري
لم تلق أوتاري؛
ريـحاً فتنقل آهاتي وأشعاري

وفي هذه التعابير دلالات عميقة على حبه وثقته وعمق علاقته بهذا المكان، حيث يعترف له بأنه المصدر والوسيلة الوحيدة التي بسببها استطاع ان يصل بصوته الشاعري الى الافاق، فالريح الحاملة لآهاته وأناته التي كان يكتبها أشعارا وقصائداً واغنيات؛ منبعها هو ارضه ووطنه الأول مكان طفولته (جيكور) الجنة الخضراء التي بها داره.

2. السوق

حيث يعد السوق أحد ابرز الأماكن التي حضرت في قصائد السياب وأشعاره، واختصها بقصائد وأبيات من شعره. وفي هذا النص سنتعرف على دلالة السوق ومكانته في أعماق ووجدان السياب؛ من خلال قصيدة "الليل والسوق القديم"

الليل والسوق القديم

خفتت بهالأصوات إلا:

غمغمـات العابرين،

وخطى الغريب،

وما تنبت الريح، من نغم حزين

في ذلك الليل البهيم:

الليل،

والسوق القديم،

وغمغمات العابرين

والنور تعصره المصابيح الحزانى في شحوب

مثل: الضباب على الطريق

من كل حانوت عتيق،

بين الوجوه الشاحبات، كأنه نغم يذوب

في ذلك السوق القديم(6)

فلدى السياب، وفق لما حمله هذا النص الشعري من رموز ودلالات؛ صورة سلبية نحو السوق في الليل، فنلحظ تميز قصيدته المكانية هذه (عن السوق) بوفرة التصوير المثقل بالوحشة والكآبة، ففي هذه الأبيات الشاعرية الواصفة لمشاهد عالقة في ذاكرة السياب، تبدو رؤيته نحو السوق ضبابية؛ سيما وهو يصفه وهو في غربته، وكأنه بقعة مظلمة كئيبة مجهولة. فإذ ما تمعنا في مضامين النص وتصويراته، فسنجده يوحي بتصور سلبي واضح، حيث استخدمت الصور الحسية الكئيبة بوفرة، كألحان حزينة تبثها الريح وحلكة سواد الليل، صورة "السوق القديم"

وهذا الموقف، يتجلى عند السياب نحو السوق في عدة نقاط أبرزها:

- محاولته إرساء جوًا كئيبًا وموحشًا نحو السوق، حيث تلاشت معظم الأصوات، ولم يتبقَّ سوى أصوات خطوات السائر الغريب وهمساته.
- تجسيده الفوانيس حزينة مثقلة بأضواء ضبابية خافتة حتى وان نشطت.
- تأكيده على شعوره الغريب المثقل بوحدته في الغربة، من خلال تكراره لهمسات المارة.

حيث يدمج جميع العناصر الدالة على عمق الكآبة، في قالبه الخاص، كبنية واحدة مندمجة تشكلت من: وجوه شاحبة ضوء خافت، ووجه شاحبة، ونغمة ذابلة... وجميعها صور لها دلالة واحدة وهي الحزن والعزلة، ورغبته بالفرار من واقعه المعاش نحو قريته، لكن اليأس يدب والتمني يستمر على امتداد القصيدة هذه؛

حيث يقول:

والريح تعبث بالدخان
الريح تعبث، في فتور واكتئاب بالدخان
وصدى غناء...
ناء يذكر بالليالي المقمرات وبالنخيل
وأنا الغريب؛ أظل أسمعه، وأحلم بالرحيل
ذلك السوق القديم(7)

وتتفتح القصيدة هذه؛ هادئة، كمتتالية حزن، بتكراره مشاهداً ستة هي: "الليل، السوق القديم، غمغمات العابرين، الغريب، نور خافت، دخان،..."، حيث جميعها تتحد في وظيفة أرادها الشاعر، وهي ايصاله احساسه المثقل بالغربة والخوف مما ينتظره من مجهول وهو ليل هذا السوق ريث عودته اليه

3. النهر

يقف السياب في هذه القصيدة، متميزا عن نظرائه العراقيين الشعراء آنذاك، من حيث منظورهم نحو المكان المائي؛ حيث "يعد تعامل السياب مع الماء واحداً من ظروف اكتشاف الفاعل في الشعر الحديث، فكان الماء رفيق السياب لا لأنه يعيش في بيئة مائية، وإنما لأنه قد اكتشف فيه القدرة على استيعاب تحولات الخطاب الشعري والخطاب اليومي المألوف".

وقصيدته "النهر والموت" مليئة بالدلالات الكاشفة لنظرته نحو المكان المائي، حيث اشتملت هذه القصيدة وحده، ما يزيد عن أربعين إشارة على المكان المائي، حيث يقول هنا:

بويب...بويب...

أجراس برج ضاع في قراره البحر
الماء في الجرار، والغروب في الشجر
وتنضج الجرار أجراساً من المطر
بلورها يذوب في أنين
بويب...بويب...
فيد لهم في دمي حنين
إليك يا بويب(8)

وبويب هو ذلك النهر الصغير المتوسط قريته جيكور؛ إذ يمثل أحد أبرز الأمكنة المائية لدى السياب، إذ برغم ذكره أماكن مائية عدة، كالمطر، والجداول، والخليج والأنهار؛ وغيرها كثير؛ لكن بويب عنده مختلف، حيث أظهر السياب في قصيدته هذه صورة جمالية مرهفة الحس..

(بويب) ذلك النهر الصغير الذي يتوسط قرية جيكور من أهم الأماكن المائية في صورة القرية، على الرغم من أن السياب ذكر (الخليج، المطر، الجداول، الأنهار، والجرف...)، إلا إن بويب له ميزة عن غيره فكان له رابط حسي وهذا ما منح الشاعر طاقة جمالية.

حيث يوفر النص هذا "قصيدة النهر والموت" رؤية شعرية مكانية مائية مليئة بالتعقيد، فالماء ليس مشهد عند السياب وحسب، وانما طاقة مؤثرة تربطه عالمه الداخلي بالمحيط حوله.

فجوهر رؤية الشاعر السياب من خلال هذه القصيدة، بدت حسية تآزرية، وظهر ذلك في سلاسة ربطه بأسلوب بلاغي بين ما هو سمعي "أجراس، أنين، بويب..بويب"، وبين ما هو بصري مثل "المطر، وماء في الجرار، وألوان الشجر عند الغروب، وبلورات تذوب؛ ثم يأتي بالمحسوس "جرات تنضج". وهذا يخلق مجالًا حسيًا موحدًا تتلاشى فيه الحدود بين مختلف عناصر العالم الطبيعي، كما يذوب البلور في الصوت.

كذلك تكشف ابيات قصيدته "النهر والموت" من خلال ابياتها عمق متعدد المستويات في النظرة الذاتية لدى الشاعر السياب نحو المكان المائي؛ حيث تبدأ القصيدة بعمق البحر العمودي، حيث "يضيع برج في هاويته"، مُرسخةً شعورًا بالغموض والابتلاع. يتناقض هذا مع الماء الأرضي المحصور "في الجرار". المعجزة المحورية في القصيدة هي تحول هذا الماء المحصور، حيث "تنضج الجرار لتصبح أجراس مطر". ينتقل هذا التحول من حالة ساكنة منزلية إلى حالة ديناميكية سماوية، مُجسدًا رؤية يكون فيها الماء كيانًا حيًا في دورة تغير مستمرة.

ولهذا نجد الماء عنده يظهر كقناة للعاطفة والذاكرة: حيث تُوجَّه الصور المائية مباشرةً إلى جوهر مشاعر المتحدث. يعمل صوت "بويب" المتكرر كمحفز نفسي، وتبلغ عملية تحويل الماء – ذوبانه وأنينه – ذروتها في التصريح القوي:

" في دمي، حنينًا يشتاق إليك إليك يا بويب". ليتحول المشهد المائي الخارجي (البحر، المطر، الجرار) إلى مشهد داخلي (الدم، الحنين)، مما يُثبت أن الماء، في رؤية الشاعر، هو الوسيط الأساسي الذي تُشعَر من خلاله الذاكرة والشوق وتُنقلان جسديًا.

"بلورها تذوب في أنين" (صوت زائل). يعكس رؤية عالمية تُصبح فيها الصلابة وهمًا، وتعود كل الأشياء في النهاية إلى حالة انسيابية وعاطفية وسمعية.

وهكذا، فإن رؤية الشاعر المكانية المائية مُناهضة للعمارة؛ وكأنها عالم يذوب في سيولة شاملة وحزينة تتمحور حول المُخاطب الغامض، وهو "بويب".

من خلال هذه الأبيات التي عالج موقفه تجاه الموت وضعفه ووحدته ورغبته في الموت وهي إحدى أفضل قصائد السياب في استخدامه الجديد للصورة الشعرية التي تعكس ذلك التجانس الكلي بين الكلمات وبينما تتماوج في داخلها الصور التشكيلية.

أنتَ من عالم الموت تسعى !

هو الموت سره
هكذاء قال اباؤنا؛ هكذا علمونا
فهل كان زورا
ذاك مظن لما رآني
وقالته نظرة(9)

وكأنه بعودته الى (بويب) مقترناً بذلك الاحساس الطفولي يخفف من هول الموت عليه أو يحد من الخوف المصاحب للذات تجاهه من جانب ويحقق من جانب آخر بموته الذي سيجيئ بصورة الفداء من اجل البشر عودة الى ذاته.

4. الكوخ

ويتجسد ذلك من خلال قصيدته الموسومة بعنوانها:

(الى حسناء الكوخ)

تبكين...
والريف الجميل يكاديرقصه الغروب؟
والليل يدنو
والغيوم بجمرها الخاني تذوب
ارخي يديه على ابيك
فكف منجله الدؤوب
يا غادة الكوخ الكئيب،يلفه الحقل الكئيب
لولا يقيني أن يوماً تضحكين له قريب
لولا امان هاتفاتسوف تنصرك الشعوب
قاسمات عينيك الدموع
فكان لي منها نصيب(10)

تبدأ القصيدة بما يؤكد الأمل والاستبشار، ويبدو الأمل زائفاً فاذا كان (البكاء) متحققاً، وكدح الأب مستمراً، اذا لم يكف (منجله الدؤوب) حتى الليل، والكآبة صفة لحياة هذه الفتاة من الداخل والخارج (الكوخ الكئيب، الحقل الكئيب) فان البشارة تقوم على يقين الشاعر بقرب الخلاص الذي لا ترشحه لغته الشعرية.

يتجلى من خلال هذه الأبيات واقع الريف العراقي والبؤس الذي تعيش فيه هذه الحسناء قائلاً:

يا غادة الكوخ الكئيب، يلفه الحقل الكئيب
لولا يقيني

أن يوماً تضحكين

له قريب

والواضح ان رؤية السياب للمكان الكوخ، رؤية حسينة، لكنها ليست رؤية ريفية فلاحية، بل مشهدٌ مؤثرٌ يمتزج فيه جمال الطبيعة بشكلٍ وثيق مع حزن الإنسان، والعمل، والأمل الجماعي الهش. إذ يظهر الشاعر صلة عميقة بالمكان الكوخ من خلال صلته بالفتاة الحزينة وصلتها بالعالم الطبيعي من حولها، إذ يكاد الريف الجميل "يرقص" عند غروب الشمس، لكن هذا الجمال يُقوضه "الجمر الخائن" لذوبان الغيوم، ونوم الليل على والدها المنهك.

والواضح في ابيات قصيدته انه صور الكوخ "حزين"، مُحاط بـ"حقل حزين"، مُجسّدًا البيئة بأكملها كمشاركة في حزن العائلة. إنه ليس بيتًا للراحة، بل رمزٌ لحياة زراعية قاسية لا تنقطع. ويتجلى ذلك في صورة "منجل الأب الدؤوب" الذي يسقط أخيرًا من يده، في استعارةٍ قويةٍ للإرهاق وعبء العمل الثقيل الذي فرضه عليه الليل المُقترب، والذي يرمز إلى قوةٍ أكبر وأكثر جبروتًا.

ومما يبرز ايضاً في نصه ذلك هو تنازع الأمل مع اليأس لكن السياب ابرز انه يكنن في عمق ذاته يقين الخلاص من الحزن والبؤوس من خلال مخاطبته عذراء كوخه الرمزي في القصيدة فيه الشفقة لكنه يتجاوزها الى ترسيخ أمل من خلال وعده الذي أطلقه بأن الضحك يوما قادم وان النصر الشعبي آت لا محالة.

والأمل ليس في ابتسامة الفتاة فقط، بل في انتصار "الأمم". فالسياب لم يكتف بالمراقبة؛ بل يشارك، ويأخذ "نصيبًا" من حزنها، معززًا بذلك رابطة النضال المشترك والنصر المتوقع. وعلى كل حال فقد حظي الكوخ برمزية مكانية قيمة، وشغلت حيز في نصوص الشاعر.

ويمكن ملاحظة كثرة الجمل الانشائية التي تؤكد الخطابية في المقطع وهو ما يتفق مع عنوان القصيدة (الى حسناء الكوخ).

وقد تنوعت هذه الجمل بين الاستفهام والنداء والشرط وهو ما يعكس هذه (الانفعالية) أو (الحماسية) التي افتتحت بها القصيدة مبشرة.

5. المنزل

ومنزل الأقنان الذي غناه ونعاه الشاعر الراحل بدر شاكر السياب في قصيدته التي حملت عنوان (منزل الاقنان) وصارت القصيدة الأبرز في ديوانه، فمنزل الاقنان هو بين ملحق ببيت أسرة الشاعر في قصيدة قرية جيكور.

ومن هنا يبدأ السياب برسم المشهد لذلك البيت الذي يبدأ بـ(الغرفة موصدة الباب) وينتهي بـ(الغرفة موصدة الباب)، ونتجسد ذلك من خلال قصيدة:

(دار جدي)

قائلاً:

مطفأة هي النوافذ الكثار

وباب جدي موصد وبيته انتظار

وأطرق الباب، فمن يجيب، يفتح؟

تجيبني الطفولة، الشباب منذ صار،

تجيبني الجرار جف ماؤها،

فليس تنضج[11]

ومن تلك الصور نجد صورة تجمع بين كل فن التعبير، فالنوافذ رغم انها كثيرة الا انها مطفأة وهي التي تعب النور والضياء لكنها هنا تعب العتمة والظلام فهو يلمح الى الأضداد في الحياة والقصيدة كلها قائمة على معنى الرحيل والفناء.

ويحدث الشاعر هنا التفاته الى ان الجد يرمز للدنيا وهي راحلة وبيت الجد هو البيت الذي يتربى فيه الأبناء وتجتمع بالأحفاد ثم تبقى الجدران شاهدة على هذه الأجيال وهي راحلة فكل شيء فيها يذكره بالرحيل والفناء المحيط بكل ذرات الحياة منها (الحائط القديم، والعصا المنكسرة، وصمت النوافذ، والشجرة القديمة أمام المنزل وهي تودع من يرحل...).

ومن قوله (وأطرق الباب فمن يجيب يفتح؟)

الاسلوب هنا انشائي الغرض منه التقرير والتعجب، ثم يتساءل بكل عبقرية شاعرية من يفتح وكل ما في الدار راحل.

ثم فجأة تجيبه الطفولة التي جمعته بأروقة هذا البيت والشباب الذي عاشه يانعاً بين الجدران وكل شيء يجيبه حتى جرة الماء ونضب ماؤها لكنها باقية تودع الراحلين:

تجيبني الجرار جف ماؤها،

فليس تنضج[12]

كناية عن شدة الجفاف المحيط بالجرة فهي ناضبة يابسة ولم يجتمع عليها الا الغبار فان جادت لا تجود الا بالغبار العالق والقابع فوق الجرار من طول مكثه وبقائه على شفا الجرار والتعبير فيه كناية عن القدم ومرور الزمان عليها.

وأما منزل الاقنان فقد ظل ذكرى خالدة لا تحتاج صيغة متخفية وكلمة أخيرة لا تنتهي في فم الشاعر المعذب:

ألا يا منزل الاقنان

سقتك الحيا سحب

تروي قبري الظمآن

تلثمه وتنتحب[13]

6. القرية

وتتجسد هذه الدلالة من خلال قصيدته (جيكور أمي) إذ في تلك الصورة يعظم الشاعر بقوة قيمة المكان، بوصفه له كأمه، وهي فكرة ليست جديدة في شعره بل هي تمتد الى أبعد من ذلك.

وكانت هذه الدلالة أكثر تأثيراً برصدها الدقيق والواقعي للمكان، كما لو أن الشاعر يرسمه في لوحة

وقد تجلت رؤيته نحو المكان/القرية في قصيدته، من خلال نصوصها الاتية:

تلك أمي وان أجنها كسيحا

لا ثما أزهارها والماء فيها، والترابا

ونافضاً بمقتلي أعشاشها والغابا[14]

في لوحة من لوحات حزنه يتحدث السياب عن وجع جيكور المتجذر فيه ذاك الوجع الذي غير مفاهيم الشاعر وترك خلفه الخراب فقد كانت تتغير بحسب الحالة النفسية التي يتذكرها فيها، ونتجسد ذلك من خلال قصيدته (جيكور أمي)

آه لكنّ الصِّبا//ولّى وضاع

الصِّبا والزمانُ لن يرجعا بعدُ

فقرّبِي يا ذكريات ونامي[15]

المبحث الثاني

الأمكنة المعادية عند السياب

أولاً: المعادية

1. الخليج

وفي قصيدة (أنشودة المطر) يتيح اتساع (الخليج) فرصة للسياب لاكتشاف خوائة النفس، وذلك خلال رجوع الصدى الذي يحاكي عدائية الشاعر للمكان يقول:

أصيح بالخليج "يا خليج"

يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى

فيرجع الصدى كأنه النشيج

يا خليج يا واهب المحار والردى[16]

يجسد الشاعر بعده عن وطنه بالاستعانة بالصوت، اذ انه يرجحه من دون الوصول الى الغاية وهي وطنه العراق لم يتمكن من الصمود أمام اتساع المكان (الخليج) فرجع متأثراً بطبيعة الصوت المرتد فلم يتمكن من الوصول، وبذا يبرز الخليج (المدى المتسع) ليعيق اتصال الشاعر بمكان نشأته الأليف – العراق.

صوت تفجر في قرارة نفسي الثكلى: عراق

لأبكين على العراق

فما لديك سوى الدموع[17]

بداية مؤثرة تعطي تمهيداً لقصة هذا الغريب وما يسكن قلبه من الحزن كأن صرخة خارجة من أعماق نفسه بوجع وألم.

2. الشاطئ

يذكر الشاعر احلامه التي تكسرت أجنحتها وأحرقتها نار الخيبة وبين ضباب من الأوهام ووسط سكون رهيب لا يعكره إلا قلبه الجريح جلت على الشاطئ يترقب عودتها ولكن... هيهات فقال في قصيدته (على الشاطئ):

على الشـــــاطئ أحلامـــــي طواهـــا المـــوج يـــا حـــب
وفـــــي حلكـــــة أيـــــامي غـــدا نجـــم الهـــوى يخبـــو

عزاء قلبي الدامي

وإذا الفجـــــــر بـــــــأنواره رمـــــى الليـــــل وأطيافـــــه
شـــــد الطيـــــر بأوكـــــاره وهـــــز الـــــورد أعطافـــــه

وفي غمرة أوهامي//وفي يقظة آلامي
بكى محبوبة القلب//عزاء قلبي الدامي[18]

3. القبر

ونتجسد ذلك من خلال قصيدته (نسيم من القبر)، ففكرة هذه القصيدة تدور حول الذكرى والحنين الى الأم والعودة الى الطفولة المتمثلة في ذكرى الأم التي التهبت حينما تذكر قبر أمه في قرية (جيكور) الريفية وهي قرية/ريف امه/والدته المتوفية رحمة الله عليها وهو عندئذ ابن ست سنوات

كذلك تذكر مرضه الشديد وتمنى لو أن أمه تلمسه بيدها كأنها الشفاء الذي لم يجده الأطباء. وقبر الأم يمثل له مكان محوري في حياته ووجدانه فهو مركز الاهتمام ومصب الحنان.

وكان السياب يذهب بمفرده الى قبرها ليملئ بالكمد والحزن بكاء يناديها لتعد دون جدوى أبدا...

من ذلك قائلاً في قصيدة

(نسيم من القبر) إذ يقول فيها

نسيم الليل كالآهات من جيكور يأتيني

فيبكيني..

بما نفثته أمي فيه من وجد وأشواق

تنفس قبرها المهجور عنها، قبرها الباقي

على الأيام يهمس بي تراب في شراييني[19]

قد رصد السياب في شعره ذلك المكان/القبر بذكره اسم تلك المقبرة وهي "ام البروم"، حيث كانت جزء من قريته، وبعد ان امتدت المدينة لتلتهم المقبرة فتصبح جزء منها

انطلاقاً من كون (حفار القبور) قناعاً يرتديه السياب وهو قناع جعلته مهارة السياب العالية في بناء القصيدة يقترب من الاتحاد التام بملامح الوجه الحقيقي قائلاً:

وكان حفار القبور

متعثر الخطوات يأخذ دربه تحت الظلام

يرى مصابيح المدينة وهي تخفق في اكتئاب

ويظل يحلم بالنساء العاريات وبالخمور

وتحسست يده النقود وهيأ الفم لابتسام

حتى تلاشى في الظلام[20] !

مرة أخرى تبرز خيبة الأمل بإمكانية التغيير لتنسحب الحياة أمام الموت بموت بادرة التصحيح التي تكتمل ولكنها مع ذلك استطاعت تحقيق شيء ما من الريح المؤقت (وتحسست يده النقود) الذي يمكن ان يحقق انتصاراً ضئيلاً للأمل (وهيأ الفم لابتسام) وان كان الموت هو المنتصر الحقيقي وضل الحلم مسيطراً حتى النهاية.

4. المنزل

قد زادت الحياة الحديثة بمشاغلها العديدة من عزله وغربة الأفراد مما كان له الدور في انتشار المكان المعادي وتأثير السلبي على الانسان، إذ ان المكان المعادي يمكن ان يمنع حركة النفسية الجسمانية بكل أبعادها ليصل الفرد الى حد التجمد لينأى بعيداً عن عالمه ليسجل هذا العالم معادياً، مما يقتضي من الشاعر ان يعيد النظر في طبيعة عالمه المادية والروحية.

وقد تحول دار طفولة السياب من الألفة الى العدائية يقول في قصيدة (منزل الاقنان):

وتملأ رحبه الباحة

ذوائب سدرة خضراء تزحمها العصافير

تعد خطى الزمان بسقسقات، والمناقير

كأفواه من الديدان تأكل جثة الصمت

وتملأ عالم الأموات

بهسهسة الرثاء فتفزع الأشباح تحسب انه النور

سيشرق في تمسك بالضلال وحين يبكي طفلها الشبح

تهدده وتنشد: يا خيول الموت في الواحة

تعالي واحمليني هذه الصحراء

لا فرح يرف بها ولا أمن

ولا حب ولا راحة[21]

يشبه الشاعر (الشجرة) بـ(جنة الصمت) و(عصافير الشجرة) بـ(ديدان تأكل منها) و(أصوات العصافير / أصوات الديدان) وهي (مراث) وبهذا تصبح الشجرة رمز للمكان القلق الطارد لأمل الشاعر والمستقبل للعصافير التي ألفت فراغه حتى أصبحت كالديدان التي تعيش على جثث الفراغ.

5. المشفى

انطلاقاً من قصيدته (في المستشفى) اذ كتب السياب هذه القصيدة بسبب المعاناة من المرض برغم ما سبق وقد فعله أطباء العراق وباريس ولندن

وأصبحت حالة ونفسية بدر شاكر السياب سيئة لدرجة انه اصبح يتذكر الماضي وكأنه ودع الدنيا هذه كلها.

نتجسد من ذلك ما قاله في قصيدة (في المستشفى):

كمستوحد أعزل في الشتاء//وقد أوغل الليل نصفه

أفاق فأوقظ عين الضياء//وقد خاف من حقنة

أفاق على ضربة في الجدار...هو الموت جاء[22] !

يبدأ الشاعر قصيدته من خلال الاحساس العام الذي يشعر به من خلال وجوده في المستشفى وهي الوحدة رغم الموجودين حوله ولكنه يعتبر نفسه انعزل عن الناس جميعاً.

وكلمة (كمستوحد) لا تدل على انه لا يوجد أحد عنده ولكنه يشعر في الوحدة بسبب أمور عدة منها المرض والغربة والمستشفى.

ثم ان الشاعر أفاق من نومته بإحساس ان الجدار من حوله يضربه شخص وان هذا الشخص هو الموت أتى يأخذ حتفه وان هذا الاحساس متلازم مع الشاعر بسبب المرض الذي يعاني منه.

وأصبح السياب تأتيه التخيلات الواسعة الكثيرة وانه أصبح يائساً من هذه الحياة، بعد ذلك حفل بدر شاكر السياب في خيال واسع وأصبح خياله يصور له أشياء كثيرة مثل هل هو الموت!

وشبه الموت على انه لصوص يريدون هدم الجدار بآلاتهم ومعداتهم لكي يأخذون روحه.

وأصبح جل اهتمام بدر هو الانتظار ويعتبر هذا الانتظار كما يظن بدر هو الموت الذي جاء ليأخذ روحه ويجعله جسد من غير روح، والروح عند الانسان اذا كانت شاعرة دائماً متعلقة بأشعاره.

الخاتمة

توصلت في البحث الى عدد من النتائج يمكن اجمالها فيما يأتي:

1. يتعدد المفهوم الاصطلاحي للمكان ويتسع تبعاً لتجربة الشاعر وتوظيفه للمكان وزاوية النظر التي ينظر منها الشاعر الى المكان.
2. اتسمت رؤية السياب للمكان في شعره بكونه حاملاً لشحنات مختلفة من مشاعره وأجوائه النفسية، فهو مكاناً تزييناً غايته امتاع القارئ أو كونه اضافياً هامشياً.
3. حفل شعر السياب بكل صور المكان ومن هذه الأماكن (الأمكنة الأليفة والأمكنة المعادية) وذلك على سعة أفق الشاعر وتمثيله أبعاد المكان في شعره.
4. رسم الشاعر المكان وأجواءه وجزيئاته إطاراً للجو ولخلق عالم شعري خاص ذا أبعاد جمالية تؤثر في المتلقي وذائقته الجمالية، فلم يقتصر على جانب المضمون فقط.
5. الشاعر السياب من أقدر الشعراء العرب على استثمار الأمكنة وايحاءاتها الدلالية وتوظيفها في نقل تجربته وأفكاره ورؤاه الفنية والاجتماعية والسياسية... الخ.

الهوامش

([1]) فلسفة المكان في الشعر العربي، حبيب موتسبي، منشورات اتحاد الكُتاب العرب، دمشق، 2001: 10-11.

(2) اشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986: 5-7.

(3) جماليات المكان في الشعر الاندلسي، د. محمود عويد الطربولي، دار الرضوان للنشر، ط1، 2012: 14.

(4) جماليات المكان، جاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط6، 2006: 10-11.

(5) الاعمال الشعرية الكاملة، بدر شاكر السياب، دار الحياة للنشر والتوزيع، القاهرة، ج1: 158.

(6) الاعمال الشعرية الكاملة، السياب، ج1: 52.

(7) مصدر سابق: 52.

(8) الاعمال الشعرية الكاملة للسياب،ج1: 308.

(9) م.ن: 310.

(10) الاعمال الشعرية الكاملة، بدر شاكر السياب، ج2: 623.

(11) الاعمال الشعرية الكاملة للسياب،ج1: 134.

(12) الاعمال الشعرية الكاملة للسياب،ج1: 134.

(13) الاعمال الشعرية الكاملة للسياب،ج1: 209.

(14) الاعمال الشعرية الكاملة للسياب،ج1:: 421.

(15) م.ن: 423.

(16) الاعمال الشعرية الكاملة للسياب،ج1: 319.

(17) المصدر نفسه: 230–234.
(18) الاعمال الشعرية الكاملة، السياب، ج2: 503.
(19) الاعمال الشعرية الكاملة، السياب، ج2: 430.
(20) الاعمال الشعرية الكاملة، للسياب،ج1: 363–364.
(21) الاعمال الشعرية الكاملة للسياب،ج1:: 207.
(22) الاعمال الشعرية الكاملة، السياب، ج1: 432.

المصادر والمراجع

1. اشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1984.
2. الاعمال الشعرية الكاملة، بدر شاكر السياب، ج1–2، دار الحياة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.
3. جماليات المكان، جاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط6، 2006.
4. جماليات المكان في الشعر الاندلسي، د. محمود عويد الطربولي، دار الرضوان للنشر والتوزيع، ط1، 2012م.
5. فلسفة المكان في الشعر العربي، حبيب موتسي، منشورات اتحاد الكُتاب العرب، 2001م.